باب السنة

طاعة الرسول فيها النجاة

بقلم
زكريا الحسيني

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه ومن والاه وبعد.

فقد أخرج الإمام البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إنما مَثَلي ومثلُ الناس كَمَثَلِ رجلٍ استوْقَد نارًا فلما أضاءتْ ما حَوْلَه جعَلَ الفراشُ وهذه الدوابُّ التي تقعُ في النارِ يَقعْنَ فيها، فجعل الرجُل يَزَعُهُنَّ ويغْلِبْنَه فيَقْتَحِمْنَ فيها؛ فأنا آخذ بحُجَزِكم عن النارِ وأنتم تَقَحَّمُون فيها».

هذا الحديث أخرجه الإمام البخاري في صحيحه برقم (٦٤٨٣) في كتاب الرقاق، وأخرج جزءًا منه في كتاب أحاديث الأنبياء برقم (٣٤٢٦)، وأخرجه الإمام مسلم برقم ٥٩٥٥ ورقم (٥٩٥٦)، و(٥٩٥٧) عن أبي هريرة وأخرجه عن جابر برقم (٥٩٥٨)، والترمذي عن أبي هريرة في الأدب برقم (٢٨٧٤) وأخرجه الإمام أحمد في مسنده بالأرقام: (١٠٣٨)، (٣٧٠٤)، (٤٠٢٧)، (٧٣١٨)، (٧٤٧٩)، (٨١٠٢)، (١٠٩٧٦)، (١٤٩٣٠).

شرح الحديث

قوله ﷺ: «إنما مثلي ومثل الناس» أي: في دعائي الناس إلى الإسلام الذي فيه إنقاذهم من النار ومثل ما تزين لهم أنفسهم وتوسوس لهم شياطينهم من التمادي في الباطل والاستمرار على المعاصي والشهوات التي توردهم النار وتدخلهم جحيمها فيصلونها وبئس المصير.

وقوله ﷺ: «كمثل رجل» قال الحافظ في الفتح: المراد تمثيل الجملة بالجملة لا تمثيل فرد بفرد، أي تمثيل حال الرسول ﷺ عند دعوته الناس إلى الإسلام لإنقاذهم من النار بحال رجل أوقد نارًا فجاء الفَرَاشُ والدَّوَابُّ فاقتحمتها وهو يذبها عن النار.

قوله: «استوقد نارًا» أى: أوقد، وزيادة السين والتاء إشارة إلى أنه سعى فى إيقادها واستحضار آلاتها، وقد وقع فى رواية جابر بن عبد الله رضي الله عنهما عند مسلم «أوقد»، واستوقد أبلغ من أوقد.

قوله ﷺ: «فلما أضاءت ما حوله» الإضاءة: شدة الإنارة وفرطها، و«ما حوله» حول الشيء: جانبه الذي يمكن أن ينتقل إليه، وجاء في رواية مسلم «ما حولها» فالضمير في «حوله» للرجل الذي أوقد النار، وأما في «حولها» فالضمير للنار.

قوله: «الفَرَاشُ» جاء في المعجم الوسيط: «الفَرَاشُ» جنس حشرات من الفصيلة الفراشية ورتبته حرشفيات الأجنحة، تتهافت حول السراج فتحترق، واحدتها فَرَاشَةٌ. ومنه المثل: «أطْيَشُ من فَرَاشَةٍ». قال في الفتح:

www.altawhed.net
موقع مسجد التوحيد ببلبيس

جزم المازري بأنها الجنادب، وتعقبه عياض فقال: الجُنْدُبُ هو الصرار أي الذي له صوت، قلت (القائل ابن حجر) والحق أن الفراش اسم لنوع من الطير مستقل له أجنحة أكبر من جثته، وأنواعه مختلفة في الكبر والصغر، وكذا أجنحته، وعطف الدواب على الفراش يشعر أنها غير الجنادب والجراد.

قوله: «وهذه الدواب التي تقع في النار يقعن فيها» يدخل فيما يقع في النار البعوض والبرغش، وما أشبه ذلك من الحشرات التي تتهافت في النار.

قوله ﷺ: «فجعل الرجل يَزَعُهُنَّ»: أي: يدفعهن، وفي رواية (ينزعهن) بزيادة النون، وفي رواية عند مسلم من طريق همام عن أبي هريرة: «وجعل يحجزهن ويغلبنه فيتقحَّمن فيها» فالزَّعُ والدفع والحجز بمعنى واحد، ويقصد به الإبعاد.

وقوله ﷺ: «فيقتحمن فيها» أي يدخلن، وأصله القَحْم وهو: الإقدام والوقوع في الأمور الشاقة من غير تثبت، ويطلق على رمي الشيء بغتة، واقتحم الدار هجم عليها.

قوله ﷺ: «فأنا آخذ» قال النووي في «شرح صحيح مسلم»: «روي بوجهين: اسم فاعل بكسر الخاء وتنوين الذال «آخِذٌ»، والثاني: فعل مضارع بضم الذال بلا تنوين «آخذُ»، والأول أشهر، وهما صحيحان».

وقوله: «بحُجَزِكم» جمع حُجْزَة وهي: مَعْقِدُ الإزار والسراويل، ويجوز في الجمع فتح الجيم وضمها.

قوله: «عن النار» وضع المسبب موضع السبب لأن المراد أن يمنعهم من الوقوع في الشركيات والمعاصي التي تكون سببا في دخول النار.

قوله: «وأنتم تقحمون فيها». «وأنتم» قال الحافظ في الفتح: في رواية (الكشميهني) «وهم» وعليها شرح الكرماني فقال: كان القياس أن يقول: «وأنتم» ولكنه قال «وهم» وفيه التِفات، وفيه إشارة إلى أن من أخذ رسول الله ﷺ بحجزته لا اقتحام له في النار، قال: وفيه أيضا احتراز عن مواجهتهم بذلك. قلت (القائل ابن حجر) والرواية بلفظ «وأنتم» ثابتة تدفع هذا. ووقع في رواية مسلم «وأنتم تفلُّتون» بفتح أوله والفاء واللام الثقيلة: «تَفَلَّتُون» وأصله «تتفلتون» حذفت إحدى التائين، وبضم أوله وسكون الفاء وفتح اللام «تُفْلِتُون» ضبطوه بالوجهين وكلاهما صحيح.

قوله ﷺ: «تَقَحَّمُون» أصله «تتقحمون» فحذفت إحدى التاءين.

نقل ابن حجر في الفتح عن الطيبي قوله: تحقيق التشبيه الواقع في هذا الحديث يتوقف على معرفة معنى قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة:٢٢٩]، وذلك أن حدود الله محارمِه ونواهيه كما في الحديث الصحيح: «ألا وإن حمى الله محارمه»، ورأس المحارم حب الدنيا وزينتها واستيفاء لذاتها وشهواتها، فشبه ﷺ إظهار تلك الحدود ببياناته الشافية الكافية من الكتاب والسنة باستنقاذ الرجال من النار، وشبه فشوَّ ذلك في مشارق الأرض ومغاربها بإضاءة تلك النار ما حول المستوقد، وشبه الناس وعدم مبالاتهم بذلك البيان والكشف، وتعديهم حدود الله، وحرصهم على استيفاء تلك اللذات والشهوات، ومنعه إياهم عن ذلك بأخذ حجزهم بالفراش التي تقتحمن في النار وتغلبن المستوقد على دفعهن عن الاقتحام، كما أن المستوقد كان غرضه من فعله انتفاع الخلق به من الاستضاءة والاستدفاء وغير ذلك، والفراش لجهلها جعلته سببا لهلاكها، فكذلك كان القصد بتلك البيانات اهتداء الأمة، واجتنابها ما هو سبب لهلاكهم، وهم مع ذلك لجهلهم جعلوها مقتضية لترديهم وهلاكهم.

أخي المسلم: ضرب رسول الله ﷺ في هذا الحديث مثلا مما مثل به حاله وحال الناس، وأنه يدعوهم إلى الإسلام الذي فيه نجاتهم من النار وسعادتهم الدنيوية، وفوزهم بجنات النعيم في الآخرة، وهم يأبون إلا دخول النار، ولقد مثل رسول الله ﷺ نفسه بأمثلة في هذا المعنى كما جاء في حديث أبي موسى الأشعريّ

www.altawhed.net
موقع مسجد التوحيد ببلبيس

رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ: «مثلي ومثلُ ما بعثني اللهُ كمثلِ رجلٍ أتى قومًا فقال: رأيت الجيشَ بعَيْنَيَّ، وإني أنا النذيرُ العُريانُ فالنَّجاءَ النَّجاءَ، فأطاعه طائفةٌ فادلَجوا على مهلهم فنجوا، وكذبته طائفةٌ فصبَّحهم الجيشُ فاجْتَاحَهُمْ». أخرجه البخاري ومسلم، وزاد مسلم في رواية: «فذلك مَثَلُ من أطاعَني واتبع ما جئتُ به، ومثل من عصاني وكذَّبَ ما جئتُ به من الحق». إلى غير ذلك من الأحاديث.

ولقد بين رسول الله ﷺ في هذه الأحاديث وجوب طاعته، واتباع ما جاء به، وشفقته على أمته ورأفته بهم، وأنه إنما ينذرهم النار ويخوفهم عذابها، ويبشرهم بالجنة ويرغبهم في نعيمها، فمن أطاعه صلوات الله وسلامه عليه نجا وأفلح وفاز، ومن عصاه فقد هلك وخاب وخسر؛ قال ﷺ: «كل الناس يدخلون الجنة إلا من أبى» قالوا: ومن يأبى يا رسول الله؟ قال: «من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبى».

والله عز وجل أمر بطاعة رسوله ﷺ وعطفها على طاعته سبحانه وجعل الهداية في طاعته فقال سبحانه: ﴿وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾ [النور:٥٤]، كما جعل طاعته مع طاعة الله عز وجل سببا لرحمة الله تبارك وتعالى فقال: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [آل عمران:١٣٢]، لكنَّ أناسًا من أمته نظروا للأمر بعين واحدة، فقالوا القرآن فقط، وأما السنة فمن الزمنا بها؟!! والجواب عن ذلك يسير؛ إذ كيف يأمر الله عز وجل بطاعة رسوله عاطفا إياها على طاعته لو لم تكن له سنة تتبع؟! فلقد كان يكفي أن يأمر الله عز وجل بطاعته وحده، ولا يعطف طاعة الرسول على طاعته، والله عز وجل أخبر أنه أنزل عليه الكتاب والحكمة، ولا شك أن الحكمة غير الكتاب، ولقد بين العلماء من السلف والخلف أن المراد بالحكمة في الآية إنما هو السنة، وأنكر البعض الآخر أحاديث بحجة أنها أحاديث آحاد، أو أنها لا تتفق مع العقل، والحق أن سلف الأمة إنما أقاموا الحجة وألفوا كتبا لرد هذه الشبهات، فألَّف الشافعي رحمه الله تعالى كتاب «الرسالة» في أصول الفقه وأقام الحجة فيه على حجية خبر الواحد؛ فإن رسول الله ﷺ كان يرسل الواحد إلى الناس يبلغهم دعوة الله عز وجل، وكانوا يقبلون منه أو يردون عليه، ولم يثبت أن بعض القبائل أو الأقوام قالوا: لن نصدقك حتى تأتي بشاهد يشهد معك على ما جئت به، بل إن الله تعالى أرسل معظم رسله واحدًا واحدًا، كذلك ألف جماعة من السلف كتبا في الرد على العقلانيين في ردهم لبعض الأحاديث، منها كتاب «تأويل مختلف الحديث» لابن قتيبة رحمه الله تعالى. ثم إن العقول تختلف فما يوافق عقلي قد لا يوافق عقلك، وإنما المقصود هو التثبت من صحة ما ورد عن رسول الله ﷺ، فإذا ثبت وجب الإيمان به وتصديقه حتى وإن قيل عنه: إنه يخالف العقل.

فالواجب على كل مسلم أن يؤمن بما جاء عن الله تعالى وما جاء عن رسول الله ﷺ، وأن يُسَلِّم بأمر الله وأمر رسوله ﷺ، وأن يعمل بطاعة الله ورسوله وأن يجتنب المعاصي والموبقات حتى ينقذه الله عز وجل من النار ويدخله الجنة برحمته وفضله.

نسأل الله تعالى أن يجعلنا والمسلمين من الموحدين الطائعين الفائزين الناجين، وأن يرزقنا الجنة ونعيمها، ويباعد بيننا وبين النار وعذابها، وأن يوحد صفوف المسلمين على التوحيد، وأن يجمع كلمتهم ويعلي رايتهم وأن يدحر الكفر وأهله والشرك وأهله.

وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله محمد وآله وصحبه أجمعين والحمد لله رب العالمين.

www.altawhed.net موقع مسجد التوحيد ببلبيس